المفهومات الاساسية للتحليل اللغوي عند العرب

د ـ عبدالرحمن ايوب

من الواضح ان التحليل العلمي لمختلف الظواهر المادية والعقلية يعتمد على مجموعة من المفهومات الاساسية التي تختلف باختلاف نوع الظواهر التي تدرس . فالمفهومات التي يعتمد عليها علم مجرد كالمنطق والرياضة تختلف عن المفهومات التي يعتمد عليها علم تجريبي او علم انساني .

وعلم اللغة من العلوم الانسانية التي يعالج ظواهر تخضع احيانا للقوانين الطبيعية الثابتة وتخضع احيانا اخرى للارادة الانسانية التي تقبل التغيير دون مبرر سوى رغبة فرد او جماعة في تغيير سلوكهم .

ورغم ما يحاوله البعض من الكشف عن مبادىء عامة للبحث اللغوي ومن ابتكار مفهومات يصلح تطبيقها على مختلف اللغات ، فان لكل لغة خصائص تنفرد بها عن سواها مما يفرض على الباحث تعديل هذه المبادىء العامة بحيث تتناسب مع اللغة المعينة التي يهتم بدراستها .

والدراسة اللغوية العربية دراسة قديمة تسبق الدراسة المنهجية الحديثة بقرون عديدة . ومن ثم فمن المغالاة ان نتوقع ان نجد من بين اللغويين العرب من يكتب عن الظواهر اللغوية العامة وعن المبادىء التي ينبغي ان يلتزمها الباحث اللغوي .

ولا يملك المتامل في كتب اللغة العربية القديمة الا ان يعتقد بوجود مبادىء عامة سار عليها البحث اللغوي العربي . وقد لانجد كاتبا اخذ على نفسه حَصْر هذه المبادىء ولكننا ولا شك نستطيع من خلال المنهج الذي سار عليه المؤلفون ومن خلال التعليقات والتعليلات التي يذكرونها ان نعرف هذه المبادىء التي اثرت في توجيه بحوثهم وجهة او اخرى .

وساحاول في هذا البحث القصير ان اتلمس بعض هذه المبادىء وان اقارنها بما يناظر من المبادىء الحديثة في التحليل اللغوي .

1) الشكل والمضمون :

اللغة في نظر المحدثين نشاط مركب من عنصرين عنصر الشكل وهو الصورة المادية التي تتالف بها الاصوات في كلمات او جمل وعنصر المضمون وهو المفهوم العقلي الذي يثيره في ذهن السامع نشاط المتكلم اللغوي .

ومن الطبيعى أن يقع المؤلفون الاوائل فى محظور الخلط بين الشكل والمضمون حين اتخذوا الدلالة أساسا للتحليل اللغوى وأن يؤدى بهم هذا الخلط الى متناقضات لاحظها اللغويون المحدثون. ونددوا بها ، ورغبة منهم فى تفادى ما وقع فيه الاقدمون من اخطاء فقد اصر المحدثون على العزل بين العنصرين ودراسة كل منهما على حدة دون تأثر بالعنصر الآخر · وبالتالى فقد قامت مدرسة تعرف بمدرسة التحليل الشكلى Formal Analysis وهى تقرر أن تركيب الكلمة او الجملة عملية ميكانيكية يمكن أن تدرس وجدها بعيدا عن المعنى المفهوم منها ، وأنه بعد اتمام هذه الدراسة الشكلية يمكن أن يدرس ارتباط كل تركيب بمفهوم معين .

ظل هذا الاتجاه سائدا حتى أوائل النصف الثانى من هذا القرن حيث نشأت نظرية اخرى تعرف باسم Transformation Theory وهى تعتمد فى التحليل اللغوى على المفهوم باعتباره الأساس النفسى للتركيب اللغوى .

ومن ثم فانها تقول بوجود نوعين من التركيب، التركيب الخارجى Surface Structure والتركيب الداخلى Deep Structure الاول منها فى نظر هذه المدرسة نتيجة نحصل عليها من اجراء عمليات معينة على التركيب الداخلى · وقد لاحظ زعيم هذه المدرسة ناعوم تشومسكى Chomsky ان بعض التركيبات اللغوية تفضى الى لبس الدلالة لا تكفى الدراسة الشكلية فى التخلص منه ومثلوا لذلك بالمثالين He is eager to pleare هو حريص على أن يجامل و He is easy to please هو من السهل أن يجامل . والجملتان كما هو ظاهر متفقتان شكليا فى كل شىء فيما عدا كلمة eager فى الاولى و easy فى الثانية :

ولما كانت المدرسة الشكلية تقرر أن العلاقات النحوية علاقات بين انواع الكلمات لا بين ذواتها ، ولما كانت كل من eager و easy من نفس النوع (الوصف) فانه طبقا لمنطق المدرسة الشكلية يتحتم أن تكون العلاقات النحوية فى كلتا الجملتين واحدة · وهذا غير الواقع لان المصدر المؤول « to please » يتعلق بفاعل الجملة الاولى « He » تعلق المبنى للمعلوم مع المسند اليه بينما يتعلق بـه فى الجملة الثانية تعلق المبنى للمجهول . ومن أجل هذا فان الطريقة الوحيدة لبيان هذا الفرق لا تتضح من التحليل بواسطة المكونات المباشرة (ic) Immediate constituants التى تنادى بها الطريقة الشكلية بل بالقول بأن كلا من الجملتين رغم اتفاقهما التام فى التركيب الخارجى يختلفان اختلافا اساسيا فى التركيب الداخلى · فالجملة الاولى تتكون من جملتين هما He is eager (هو حريص) و He pleases (هو يجامل) أما الثانية فتتكون من He is easy (هو سهل) و He is pleased (شخص ما يجامله) ويمكن وضع هذا التفسير بكل بساطة بلغة النحاة العرب على النحو الآتى (فى الوقت الذى تؤول فيه الجملة الاولى بالجملة « هو حريص على أن يجامل الناس » فان الجملة الثانية يؤول بالجملة « من السهل على اى شخص أن يجامله »).

وهكذا نرى أن الطريقة التحويلية هى فى صميمها عملية التأويل التى قال بها النحاة العرب وان عملية التأويل شأنها فى ذلك شأن النظرية التحويلية تعتمد على المستوى الدلالى للعبارة حيث انها فى النهاية تعتمد على المدلول الذى بينه المؤول به فى توضيح التركيب الخارجى للجملة · واذن فالاساس المزدوج الذى يقول به النحاة العرب (اى التعبير والتأويل) هو نفس الاساس المزدوج الذى تنادى به المدرسة التحويلية ، التركيب الخارجى والتركيب الداخلى · كما أن الجانب النظرى لكل من الاتجاهين واحد وهو الاستعانة بالمعنى فى تفسير التركيب الخارجى للعبارة .

بقى عنصر آخر تقول به المدرسة التحويلية وهو «القواعد التحويلية » ولم يهتم العرب اهتماما كبيرا بمثل هذه القواعد بالنسبة للتحليل النحوى ولكنهم ابتدعوا نظما غنية من القواعد التحويلية فى علم الصرف. وباب الاعلال والابدال ليس فى حقيقة أمره الا مجموعة من القواعد التحويلية كما نرى فى المثال التالى .

نلاحظ الارتباط الشكلى والدلالى فى الالفاظ « قال ، يقول قائل ، قيل الخ» · اذ نلاحظ وجود عناصر متغيرة وعناصر ثابتة فى كل من هذه الالفاظ ، أما العناصر الثابتة فهى « القاف واللام » وأما العنصر المتغير فهو الفتحة فى «قال» وهى تقابل الضمة فى «تقول» والهمزة فى « قائل » والكسرة فى « قيل » · والسؤال الآن هو اى هذه الاحتمالات الاربعة يعتبر اصلا تكون الاحتمالات الاخرى صورا له · قال الصرفيون بأن الواو (التى

تمثلها الضمة الطويلة فى يقول) هى الاصل وبالتالى فان اصل قال (او التركيب الداخلى لها) هو «قول» واصل يقول هو «يقول» واصل قائل هو «قاول» ثم وضعوا طائفة من القواعد المطردة لتحويل الواو فى الامثلة كلها الى الصورة التى تبدو عليها واقعيا فى المثال · اى انهم فى واقع الامر قد قالوا بنفس الامور الثلاثة التى تقول بها المدرسة التحويلية وهى التركيب الخارجى (اللفظ) والتركيب الداخلى (التاويل) والقواعد التحويلية (قواعد الاعلال فى هذه الحالة) ·

وقد امتازت المدرسة العربية على المدرسة التحويلية فى هذا المجال بميزة هامة ذلك أن المدرسة التحويلية تضع قاعدة لتحويل مثال بعينه وبالتالى فانها من باب التفسير لا التقعيد · اما القاعدة الصرفية (اى القاعدة التحويلية) عند العرب فانها قاعدة تركيبية عامة لا تفسر لفظا بعينه بل تعمل فى كل الظروف التى تنطبق على القاعدة · وهذا هو بحق ما يمكن أن يسمى بالتقعيد· اما القواعد التحويلية التى يقول بها تشومسكى واتباعه فهى كما قلنا ليست قواعد بل مجرد تفسير تحليلى لاحتمالين عقليين فى فهم عبارة معينة · وعلى سبيل المثال نجد ان القاعدة العربية « اذا تحركت بالواو وسبقت بالفتحة قلبت (او تحولت) الفا » تنطبق على التركيب الداخلى (التاويل) « قول » الذى يصير تركيبا خارجيا هو « قال » · كما سنجده منطبقا على التركيب « قوم » الذى يصير بناء على نفس القاعدة « قام » · اما القاعدة التحويلية الاخرى وهى « اذا وقعت الواو مضمومة حذفت ضمتها للثقل وصارت الواو ضمة طويلة » فاننا نجدها تنطبق على « يقولِ » التى تصير بناء عليها الى « يقول » وعلى « مقوول » التى تصير بناء على القاعدة نفسها الى « مقول » اما القواعد التحويلية التى قال بها تشومسكى فانها قواعد لا تنطبق على اطلاقها بل فى نطاق مثال معين قد يحتوى على لفظ او تركيب يمكن ان يكون مزدوج العلاقة ·

لست الآن فى مجال الرد على المدرسة التحويلية ولا على المدرسة التقليدية العربية فى اتخاذ المعنى اساسا للتبويب النحوى · ولكن ينبغى علي الآن ان اعترف بأنى اوافق النحاة كل الموافقة على قواعدهم التحويلية الصرفية بينما اختلف معهم كما اختلف مع المدرسة التحويلية فيما يتعلق بالقواعد التحويلية النحوية (اى التاويل) والفرق بين الامرين هو ان التاويل مبنى على اساس الدلالة اما القواعد الصرفية فانها عملية تجريد لوحدة صرفية معينة من امثلة واقعية وهذه العملية تعتمد اطلاقا على عنصر المعنى وان كانت تستعين به فى حصر الكلمات التى تنتمى الى مادة واحدة ·

(2) الوحدة الصوتية والحرف :

الصوت اللغوى هو مجموعة من الصفات الصوتية تعتبر جزءا واحدا من الاجزاء التى تكون الحدث اللغوى، كالكاف من « ركب » ، وهى تتكون من صفات تسمى الانفجار والهمس والرخاوة · ويدرك ابناء اللغة بفطرتهم — وان كان هناك من علماء الاصوات من يشك فى ذلك — وحدة هذه الصفات بحيث تكون الكل الذى نسميه صوت الكاف · ولكن هذه الصفات قد تزيد او تنقص تبعا للظروف التى يوجد فيها الصوت ، ففى المثال « كتب » نقصت من هذه الصفات صفة الانحباس وفى المثال « لك » وجد الانحباس ولم يوجد الانفجار · ومعنى هذا بالضرورة ان يكون لدينا فى الامثلة الثلاثة السابقة ثلاث كافات لا كاف واحدة هى ثلاثة انواع من الكاف ، « الكاف المنفجرة والكاف المنحبسة والكاف المنفجرة المنحبسة » او بعبارة اخرى فان الحرف الذى نسميه كافا يعنى كافا كلية تندرج تحتها افراد ثلاثة من الكافات· والكاف الكلية هذه هى الوحدة الصوتية او الصوتيم (Phoneme) وهى امر اعتبارى يتدرج تحته افراد واقعية يسمى كل منها صوتا (Phone).

ولم يفرق العرب بين الصوتيم والصوت تفريقا نظريا واضحا كما فعل المحدثون ولكن ما كتبوه فى وصف الاصوات بين بوضوح ادراكهم لهذه النظرية ·

وقد استعمل سيبويه لفظ (حرف) للمعنى العام الذى يعرف بالصوتيم او الوحدة الصوتية ثم ذكر أن هناك حرفا اصليا وفروعا له · ومثل لذلك بالالف والالف الممالة والف التفخيم وبالضاد والضاد الضعيفة وبالنون والنون الخفيفة . . الخ ·

واتجاه سيبويه هذا يذكرنا بتعريف دانيال جونز للصوتيم بأنه عائلة من الاصوات يعتبر احدهما اصلا والباقى فروعا له ·

ولن ادخل الآن فى الجدل الذى نشب بين اللغويين المحدثين حول نظرية الصوتيم Phoneme theory

ولكنى اكتفى بالقول بانهم قرروا ضرورة تحديد الظروف الكلامية التى يوجد فيها كل من افراد الصوتيم ولا يمكن ان يوجد فيها سواه · وفى باب الإدغام فى العربية مثال لتوزيع انواع حرف ما (او الاصوات التى تتدرج تحت وحدة صوتية معينة) على مختلف الظروف الكلامية ·

ولنأخذ مثال النون العربية وهى على انواع :

1) نون لثوية مجهورة وتوجد فى جميع الحالات سوى ما يأتى ·

2) نون رخوة انفية مجهورة وتوجد قبل الكاف مثل « ان كان » ·

3) نون لهوية انفية مجهورة وتوجد قبل القاف مثل « ان قال » ·

4) نون صلبية انفية مجهورة وتوجد قبل الياء والشين والجيم « ان يكن » « ان شاء » « ان جاء » ·

5) نون شفوية ثنائية مستديرة انفية وتوجد قبل الواو مثل « ان وعد » ·

(3) الساكن والمتحرك والحركة :

يقسم علماء اللغة المحدثون الكلمة « كتب » الى ستة اقسام الكاف والفتحة والتاء والفتحة والباء والفتحة · ولكن علماء اللغة العرب يقسمونها اقساما ثلاثة فقط هى الكاف والتاء والباء ثم يضيفون لكل من هذه صفة لاحقة بها هى الفتحة او بعبارة اخرى فان العرب يعتبرون ان الكلمة « كتب » تتطلب ثلاث عمليات هى :

1) عملية اداء الكاف والتخلى عنها اى رفع مؤخرة اللسان الى السقف الرخو وحبس الهواء مع عدم الجهر ثم التخلى عن هذا الوضع النطقى ·

2) عملية اداء التاء والتخلى عنها وهى تلامس طرف اللسان مع اللثة وحبس الهواء والهمس ثم التخلى عنها ·

3) عملية اداء الباء وهى انطباق الشفتين وانحباس الهواء والجهر ثم التخلى عنها ·

وجزئية التخلى فى هذه العمليات الثلاثة قد تتخذ اشكالا متعددة تبعا لوضع اللسان والشفتين وحركة الاوتار الصوتية فقد تكون جزئية التخلى هذه هى ما يسمى بتحريك الكاف بالفتحة او بالضمة وقد تكون بالسكون فلا تسلك الاعضاء الصوتية نفس سلوكها عندما تكون جزئية التخلى هذه فتحة او كسرة او ضمة. والشكل الذى تتخذه جزئية التخلى هو ما تسميه مدرسة التحليل الطيفى باسم « Cue » وصنيع العرب فى هذا المجال يذكرنا بالكتابة الاثيوبية التى لا تكتفى بصورة كتابية للساكن بل تضع صورة للساكن محركا بحركة ما تختلف عن الصورة التى تضعها لنفس الساكن عندما يكون محركا بحركة اخرى فالباء — على فرض ان النظام الصوتى فى الامهرية هو نفس النظام الصوتى العربى — تكتب على اربعة اشكال مختلفة ، شكل عندما تكون ساكنة وآخر عندما تكون مفتوحة وثالث عندما تكون مضمومة ورابع عندما تكون مكسورة . وهذا النوع من الكتابة هو ما يعرف باسم الكتابة المقطعية ، وتعتبر الكتابة العربية خطوة الى الامام حيث جعلت للصوتيم رسمه الموحد رغم اختلاف حركته. ولكنها اعتبرت الحركة شكلا من الاشكال الذى يبدو عليها الصوتيم وليست صوتيما آخر ·

ويظهر لنا ان تركيبات اللغة العربية ذاتها تساعد على هذا الاتجاه وذلك للاسباب الآتية :

1 — الحركات فى العربية لا تزيد عن اربعة هى : عدم وجود حركة (سكون) وفتحة وضمة وكسرة . وبذلك فان مجال الخلط بينها ليس واسعا كما هو فى الانجليزية والصومالية التى تزيد عدد الحركات فى كل منهما عن عشرين حركة ·

2 — تحدد الاوزان الصرفية نوع الحركة بعد كل ساكن من مواد الكلمة فاسم الفاعل من الثلاثى دائما مفتوح الاول (فتحة طويلة) مكسور الثانى · والفعل الماضى والمضارع المبنيان للمعلوم مفتوحا الاول دائما ولا يخرجان عن هذه القاعدة الا فى حدود قواعد اخرى كزيادة الهمزة على المادة فى مثل « اخرج » التى تتطلب ضم اول المضارع وكالبناء للمجهول الذى يتطلب طريقة اخرى من تحريك السواكن الخ ·

3 — تتكفل القواعد الاعرابية بتحديد حركة اواخر الكلمات · من اجل هذا لم تجد الكتابة العربية فى اول امرها حاجة الى وضع رموز خاصة بالحركات ، اكتفاء بالقواعد التركيبية فى مستوى الصرف والنحو التى تحدد نوع الحركات الى حد كبير ·

صحيح ان هذا يعنى ان الكتابة العربية تعتمد على قواعد اللغة الصرفية والنحوية وهذا واضح فى نزعة قواعد الاملاء الى ان تعتمد على القواعد الصرفية ·

وصحيح ايضا أن هذا يواجه المتعلم بصعوبة بينة حيث انه يبدأ تعلم اللغة بتعلم الكتابة بينما ان الكتابة تعتمد على النحو والصرف الذى لا يحيط بهما المتعلم عندما يبدأ تعلم الكتابة الخطية ·

ولكن الامر من وجهة النظر التحليلية (وهى مستوى اعلى من مستوى التأليف التعليمى) أمر منطقى حيث انه من المسلم به لدى علماء اللغة أن قواعد اللغة تعتمد مستوياتها كل على الآخر · وكما تعتمد القواعد الصرفية على القواعد الصوتية او النحوية مثلا فان القواعد الكتابية بدورها يمكن دون حرج أن تعتمد على مستويات اخرى من قواعد اللغة · ومن هنا اهمل الكتاب العرب الاوائل كتابة الحركات فيما عدا الطويلة منها ، وقد رمزوا اليها بحروف سموها حروف اللين والمد · وفى تاريخ متأخر استعملت حروف اللين والمد للرمز للصفات الحركية لحروف المادة والزيادة وكتبت صغيرة فوقها (و) للضمة (ا) للفتحة (ى) للكسرة (ه) للسكون · ولا يزال رسم المصحف يحتفظ بهذه الطريقة لتدوين الصفات الحركية أو الحركات ·

وفى دراسة اصوات اللغة اتبع سيبويه وتلاميذه هذا المنهج فوصفوا الحروف اساسا ولم يصفوا صفاتها الحركية الا وصفا ضمنيا حين تحدثوا عن حروف اللين والمد · ويقرر سيبويه صراحة أن الفتحة جزء من الالف والكسرة جزء من الياء والضمة جزء من الواو فيقول (واما الحركات فهى من الالف والواو والياء .. الخ ·

وبناء على هذا يكون كل من الالف والواو والياء مكونا من جزئين اللين (نصف الحركة) والمد (طول الحركة) ·

وقد يكون جزء اللين (أو نصف الحركة) شبيها بالحرف وذلك اذا تبعته حركة او ولى حرفا متحركا مثل و ، ى فى الكلمتين ، أو ، اى ، وهذا ما يسميه علماء الاصوات المحدثون **بالانزلاق** او نصف الحركة Semi vowel اما بالنسبة للجزء اللين من الالف فله احتمالان اما أن يكون حركة وذلك اذا كان صفة لحرف كالفتحة فى « ك » واما ان يكون **انزلاقا · ونظرا لان الفتحة لا مخرج لها** حيث ان جميع الاعضاء الصوتية تكون متباعدة بعضها عن بعض فان الانزلاق لا يمكن ان يحدث الا اذا اقتربت الاوتار الصوتية بعضها من بعض اقترابا يشبه اقتراب الشفتين للنطق بالواو وقد يشتد الاقتراب ثم يزول فتنتج ما سماه سيبويه بالهمزة المسهلة · وقد يكون الانزلاق بطريقة اخرى وهو احداث دفعة هوائية ضخمة تحتقن بواسطتها منطقة الاوتار الصوتية · وبعد مرور الدفعة الهوائية يزول احتقانها محدثا صوتا شبيه انفجارى وربما كان هذا هو ما يقصده سيبويه بالهمزة التى بين بين · وهذه العملية هى التى تسمى بازدواج القمة المقطعية · (doubling the peak)

هذا ولم يقسم سيبويه بادىء ذى بدء الاصوات الى سواكن (consonants) وحركات (vowels) كما فعل المحدثون ولكنه قسم الاصوات الى اقسام متعددة هى المنفجرة والانفية والجانبية والمترددة وحروف اللين والمد .. الخ · ثم جعل الحركة جزءا من حرف اللين ، اى أن وصفه لحروف اللين يتضمن وصفه للحركات ضرورة انها الاخيرة اجزاء من الاولى ، وسيبويه هنا صوتى دقيق حيث انه لاحظ ما لاحظه المحدثون من ان الفرق بين ما نسميه الواو والضمة والياء والكسرة هو مجرد الاستمرار الزمنى فى الآداء او الطول فلو نطقنا بالكلمة « أو » واستمر نطقنا بالواو الساكنة فسيكون هذا الاستمرار هو الضمة وبالمثل اذا ما نطقنا بالياء الساكنة من « اى » فان اطالتها تنتج الكسرة ·

واذن فالفرق بين سيبويه والمحدثين هو كالفرق بين شخصين يدعى احدهما أن الرقم 4 ينتج من تكرار العدد 2 مرتين ، ويدعى الآخر انه يتكون من تكرار العدد 1 اربع مرات · هو مجرد فرق فى الاعتبار لا فى الموضوع ·

الوصف المادى والوصف الوظيفى :

ويجدر بنا فى سياق الحديث عن الحركات أن ننقل عن سيبويه قوله بأن الحركات فى العربية ثمانية هى الضم والرفع والفتح والنصب والخفض والجر والسكون والوقف وان هذه الثمانية من حيث الواقع اربعة لان الضم والرفع امر واحد وكذلك الفتح والنصب والخفض والجر والوقف والسكون · ولكن نظرا لامكان تغيير حركة الرفع والنصب والخفض والسكون نتيجة لاختلاف موقع الكلمة الاعرابى فقد اعتبر هذه أمورا مختلفة عن الضم والفتح والخفض والسكون ·

وسنتبع سيبويه هذا يعكس نظرية حديثة تفرق بين الصفات الذاتية لافراد الوحدة اللغوية وبين الصفات الوظيفية للوحدة ذاتها · وقد وضحنا هذا الفرق فى ترجمة متعددة بمثال لا نرى بأسا من اعادته هنا ·

لو قلنا بأن حارسا واحدا يحرس مبنى الكلية ، فان هذا لا يعنى وجود حارس واحد دائما فى كل ساعات النهار والليل ولا تتعارض هذه الدعوى مع وجود ثلاثة من الحراس يتناوبون فيما بينهم الحراسة هم محمد وعلى وابراهيم ·

وليس من شك فى صحة قولنا بأن فى الكلية ثلاثة حراس هم محمد وعلى وابراهيم وصحة قولنا بأن حارسا واحدا يحرس الكلية ، حيث أن حارس بالمعنى الثانى تحديد للوظيفة أما بالمعنى الاول فانه يعنى تحديد شخص ذى صفات بعينها هو احد الثلاثة محمد وعلى وابراهيم ·

ومثل هذا التفريق هو الذى قصده سيبويه فهو يعنى بالضم والفتح والخفض والسكون ذوات الحركات ويعنى بالرفع والنصب والجر والجزم وظائف قد تحقق بهذا الحركات (وهو الاعم الاغلب) وقد تحقق بأمور اخرى كالرفع بالواو او بالالف او ثبوت النون والنصب بالالف او بالكسرة او حذف النون والجر بالفتحة او بالياء والجزم بحذف النون او بحذف حرف العلة ·

ونظرية تقابل الصفات الوظيفية والصفات المادية هى المحور النظرى فى دراسة علم اللغة الحديث · وقد تطلب نضوج هذه النظرية عشرات من السنين حيث وجدناها فيما كتب دى سوسير فى العشرينيات (وربما كانت موجودة من قبله) ولا تزال محل نقاش نظرى حتى يومنا هذا ·

المادة والاساس والصيغة :

بعد الانتهاء من حصر الوحدات الصوتية فى اللغة يصعد الباحث الى مستوى اعلى من التحليل هو مستوى تركيب الكلمة morphology والوحدة الاساسية فى هذا المستوى هى الصرفيم morpheme ويعرف بانه أقل مجموعة من الوحدات الصوتية تؤدى معنى مثل im فى الكلمة الانجليزية impossible ويفرق علماء اللغة المعاصرون بين مجموعة من الاصوات توجد وحدها فى الاستعمال وتقبل اضافة اجزاء تركيبية اخرى اليها وتكون معها كلمة وبين سواها من المجموعات الصغرى ذات الدلالة فكلمة possible تعتبر اساسا للكلمة impossible وقد نهج العرب نفس المنهج حين اعتبروا كلمة مسلم اساسا بنيت عليه الكلمة مسلمون ، غير انهم اضافوا مفهوما آخر تقتضيه طبيعة اللغة العربية واطلقوا على هذا المفهوم لفظا لمادة · والمادة اقل مجموعة من الاصوات تؤدى معنى ولكنها لا تصلح وحدها ان تكون كلمة مستقلة الاستعمال بل ولا يمكن النطق بها دون اندماجها مع مجموعة اخرى ذات معنى تسمى بالوزن ·

والمادة والوزن مفهومان خاصان بالعربية وباللغات السامية وهما مفهومان تجريديان وليسا كالاساس جزءا يمكنه الاستقلال بذاته فى الاستعمال · والمادة والوزن ليسا مجرد طريقة منهجية لتفسير بناء الكلمة فى العربية ولكنهما اعتباران ينبنى عليهما السلوك الصوتى فى تركيب الكلمة · نود أن يلاحظ ما يأتى :

أ) الصوتيم فى المادة وغير المادة :

قلنا بأن الصرفيم يتكون من صوتيمات · وقلنا بأن كل صوتيم يشمل مجموعة من الانواع يختار واحد منها للاستعمال فى ظرف او ظروف معينة لا يشاركه فيها سواه وكل هذا صادق بالنسبة للغة كالانجليزية · أما فى العربية فيصدق هذا السلوك فى غير صرفيمات المادة · ولنقارن بين سلوك الصرفيم « و » عند وجوده فى صرفيم غير صرفيم المادة وعند وجوده فى صرفيم المادة ·

فى غير صرفيم المادة نلاحظ ان الواو تلزم صفة واحدة ولا يعتريها غير تأثيرات التجاوز كالتفخيم اذا جاوزت صوتا مفخما مثل طور ، والانفية اذا جاورت صوتا انفيا مثل إن وعد · أما فيما عدا ذلك فانها تحتفظ بصفاتها الاساسية وهى الشفوية الثنائية والانطلاق وعدم الاحتكاك والجهر ، ولكن الواو فى صرفيم المادة ذات شأن آخر فقد تكون واوا ساكنة وقد تكون ضمة قصيرة او طويلة وقد تكون فتحة طويلة وقد تكون همزة وقد تكون ياء وقد تسقط نهائيا ·

واليك الامثلة :

فى المادة العربية « ق و ل » الاصل الثانى « واو » ومن هذه المادة تشتق الكلمات قال ، يقول ، قائل ، قيل ، قل الخ · ولو ابعدنا من هذه الكلمات حروف الزيادة

من ياء المضارعة والف صيغة « فاعل » وابعدنا كذلك الاصل الاول وهو القاف والاصل الثالث وهو اللام لوجدنا (1) الاصل الاوسط وهو الواو يبدو مرة فتحة طويلة ومرة اخرى ضمة طويلة وثالثة همزة ومرة رابعة ضمة قصيرة · ومعنى هذا ان الصوتيم « و » اذا كان من صوتيمات المادة فانه يظهر فى صورة واحد من هذه الاصوات الخمسة ومثل هذا السلوك قاصر على صوتيمات المادة ولا يتعداها الى الصوتيمات التى لا تكون اصولا فى مادة ·

ب) تجاوز الصوتيمات :

للصوتيمات فى كل لغة سلوك معين ، فمنها مالا يمكن ان يقع فى اول الكلمة او وسطها او آخرها · ومنها ما لا يقع بعد النبر او بعد حركة معينة او قبلها · ومثال ذلك الصوتيم ن G فى الانجليزية وهو لا يوجد الا فى آخر الكلمة كما فى King .

ومنها ما يجاوز اصواتا معينة ولا يجاوز اخرى · وفى الانجليزية يمكن وجود المجموعة اول الكلمة ولكن لا يمكن وجود المجموعة TS فى هذا الموضع وقد تعرض العرب لموضوع تجاور الاصوات غير انهم ميزوا بين تجاور الاصوات فى نطاق المادة وفى غير نطاق المادة · وبالنسبة لاصوات المادة خلصوا الى القول بقواعد ثلاثة :

(1) لا يمكن اجتماع صوتين متماثلين فى اول المادة (اى لا يمكن كونهما فاء وعينا) ومن ثم فليس فى العربية كلمة فاؤها وعينها تاء مثلا ، أما الكلمة اتبع وفيها تجتمع تاءان (التاء المشددة) فاحداهما صوتيم المادة الاولى (فاء الكلمة) أما الاخرى (فتاء الزيادة) ، اى ان اجتماع التاءين يمكن اذا كانت احداهما تاء زيادة والاخرى من مادة الكلمة · كما يمكن اجتماع صوتين متماثلين فى اول المادة نتيجة ادغام آخر كلمة سابقة مع اول كلمة بعدها كما فى قولنا « اسكت توبة لربك » · فبالرغم من ان التاءين صوتيم مادة فانهما ليستا من مادة واحدة بل من مادتين مختلفتين هما س ، ك ، ت ، ت ، و ، ب ·

(2) يمكن ان يكون الصوتيم الثانى والثالث من صوتيم مادة متماثلين مثل ر ، د ، د ، ش ، ب ، ب (ومنها ردّ وشبّ) ·

(3) اذا كان الصوتيم الثانى والثالث غير متماثلين فيتحتم ان يكونا متباعدى المخرج · ولهذا فلا توجد مادة فى العربية ثانيها وثالثها دالا وتاء او ياء او جيما او سينا وصادا او طاء وتاء او قافا وكافا . . الخ · وذلك لتجاور مخارج هذه الصوتيمات ·

الشىء المهم هنا هو ان نظرية التجاور فى هذا المجال ارست متحققة على النحو المألوف فى غير العربية واخواتها الساميات لان المادة كما قلنا ليست صورة مفترضة · والتأثر بالمجاورة يفترض أن يكون ناتجا عن الحركة العضوية الواقعية التى تمر من موضع النطق بصوت الى موضع النطق بالصوت الذى يليه · وهذا التداخل فى الحركة العضوية التى تستمر حتى تشمل الموضعين هو الذى يسبب التأثر بالمجاورة · ولما كانت المادة لا تنطق ، امتنع بالضرورة التأثر الناتج عن تداخل الحركة العضوية ·

ولا أود ان اتورط فى تفسير هذه الظاهرة اللغوية غير العادية · ولكن يمكن ان يفترض ان المادة فى العربية كانت فى دور سحيق كلمة واقعية يمتنع فى نطاقها اجتماع صوت بآخر ·

ودراسة التغيرات الصوتية فى نطاق المادة قد انتج دراسة طويلة قام بها اللغويون العرب بكل دقة وتفصيل · وهذه الدراسة تدخل فى باب يعرف بالاعلال والابدال ·

ج) التجاور بالتقابل :

لا يقتصر تأثر الاصوات بعضها ببعض فى العربية على الاصوات المتجاورة فعلا او على اصوات المادة بعضها ببعض بل قد يتعداها لتأثر اصوات فى صيغة ما بأصوات فى صيغة ثانية مع ان الصيغتين لا تجتمعان اجتماعا واقعيا · وقد حصر العرب هذه الحالات حصرا دقيقا فى باب صيغ الفعل وربطوا امكانيات التنوع الصوتى بين الصيغ بالتعدى واللزوم او ببعض المعانى · واليك امثلة توضح ذلك :

---

(1) الضمة القصيرة التى بعد القاف فى « قل » جزء من الوزن حيث انها نظير الضمة التى بعد الخاء فى فعل الامر « ادخل » ·

1 ــ فعــل ومضارعه يفعل مثــل ضربــه يضربــه

2 ــ فعــل ومضــارعه يفعــل مثل اخذه ياخــذه

3 ــ فعــل ومضارعه يفعل مثل سمعه يسمعــه

وقد ارتبط تعدى الفعل هنا بحركة العين فى كل من الماضى والمضارع او بعبارة اخرى فانه يمكن ان نقول بأن كسر عين المضارع يحدث اذا فتحت عين الماضى وكان الفعل متعديا ·

وهذا نوع جــديد من التجاور ، اذا صح هــذا التعبير وهو اعتماد نوع الحركة فى كلمة اخرى لاتجاورها مجاورة واقعيــة استعمالية بــل ترتبط بها بمجــرد الاشتراك فى المادة · اذكر هذا على سبيل التمثيــل لا على سبيل الحصر لتوضيــح هذه الظاهرة اللغــوية الفريدة · ولمن شاء الاستزادة أن يرجــع الى كتــاب سيبويه مثلا ليجد التفصيلات والتفريعات التى تشهــد بنضوج منهجى نــادر ·

د) اللــواصق والــوزن :

سبق ان ذكرنا ان بعض الكلمات يمكن ان تكون اساسا لتوليد كلمات اخرى وذلك باضافة صرفيمات ذات معنى ما الى الاساس · وقد تكون الصرفيمات المضافة بدورها كلمات تصلح اساسا ويمكن استعمالها مستقلة وقد لاتكون · وهذا النوع الاخير هو ما يسمى باللاصقة Affix واليك هذه الامثلــة :

1 ــ الكلمة الانجليزية black bird (اسم طائر) تتكون من black و bird وكل منهما تصلح أن تستعمل كلمة مستقلة · وهنا يتعذر اختيار واحد من الجزاين ليكون اساسا ·

2 ــ الكلمة impossible تتكون من im وتعبر عن النفى و possible وتسمى الاولى لاصقة امامية (أو سابقة) prefix والثانية اساسا ·

3 ــ الكلمة (مسلمون) تتكون من مسلم وهــى الاساسى و (ــون) وهى لاصقة ·

4 ــ الكلمة العربية كليب تتكون من كلب وهى الاساس ومن الياء الساكنة بعد اللام وهى واسطــة (وضم الكاف منها) ·

ويمكن تطبيق نظــرية اللواصق التى قال بهــا الاوروبيون على اللغة العربية فى غير نطاق المادة · وقد فعل العرب ذلك فى مثل جمع المذكر السالم والمؤنــث السالــم والتصغير .. الــخ ، أما بالنسبة للمادة فلم يقولوا بفكرة السوابق والوسائط واللواحق بل قالوا بفكرة الــوزن · وهم فى هذا على حــق فان الاصوات الزائدة على مادة ك ، ت ، ب فى كلمة مكتوب · وهى الميم والفتحة التى بعدها والضمة الطويلة بعد التــاء لا تنفصلان فى صورة السابقة «م» والواسطــة «و» ولكنهما وحدة تركيبية لا يمكن انفصال جزئيها ·

هذه بعض الاسس النظرية التى بنى عليها التفكير اللغوى عند العرب · وهى كما قلت لم تذكر صراحــة فى مؤلف مستقل أو فى جزء خــاص من مؤلف · ولكــن اللغويين العرب قد يشيرون الى بعضها اشارة جانبية فى بعض مناقشاتهم ، التى قد تتعرض لافكار شبيهــة بما تعرف اليوم من نظريات لغوية وفى يقينى أن الاتجاه الى البحث عن الاسس النظرية للــدراسة اللغــوية العربية سيفتح امامنا مجالا خصبا جديدا لا يستطيــع أن يلجه من لم يتمكن من فهم التراث اللغوى العــربى فهمــا مستنيرا ·